الازدواج اللغوى

أسبابه ، ومظاهره ، وكيفية علاجه ، قديما وحديثا

د. عبد العزيز أحمد علام
أستاذ مساعد بقسم أصول اللغة
كلية اللغة العربية ـ القاهرة

من الظواهر اللغوية الجديرة بالدراسة والتحليل ظاهرة الازدواج اللغوى . والحديث عن هذه الظاهرة يتشعب ويتسع ليشمل الظاهرة قديما من حيث العوامل التى أدت اليها ، والمظاهر التى اتخذتها ، وموقف القدماء منها ، وطريقة علاجها ، .. ثم ليشمل أيضا الظاهرة حديثا من حيث الأسباب والعوامل ، ومن حيث المظاهر والصور ، ومن حيث طرق العلاج ووسائله ..

وسوف لا يتسع المقام للوقوف على كل جوانب القضية فى هذه العجالة ، فهذا مما يستحق أن يفرد له مؤلف خاص .. ولذا فسوف نوجز القول فى هذه القضية قانعين بما يثيره هذا البحث لدى القارىء الكريم من أهمية « الازدواج اللغوى » وضرورة دراسته بالأسلوب العلمى ، وبالمنهج التاريخى الدقيق ، ثم بالمنهج الوصفى الذى يربطنا بالواقع اللغوى المعاصر ، ويضع أيدينا على الخطة المثلى فى علاج هذه الظاهرة وبخاصة على مستوى « اللغة العربية الفصحى » .

وقبل أن نتحدث عن ظاهرة الازدواج اللغوى فى اللغة العربية يهمنا أن نقدم للقارىء الكريم أمرين أساسيين فى هذا المقام :

الأول : التعريف بالظاهرة .

والثانى : أسس وحقائق عامة .

« التعريف بالظـاهرة »

ان المقصود بالازدواج اللغوى هو : وجود نظامين لغويين أو أكثر فى الاستعمال اللغوى فى البيئة اللغوية الواحدة .

وهذا قد يتحقق عندما تتصارع لغتان أو أكثر فى منطقة واحدة ، ثم ينتهى الصراع فى احـدى مراحله الى اسـتمرار التعامل اللغوى بنظامين لغويين ، ومعنى هذا أن تظل كلتا اللغتين الغازية والمغزوة — مثلا — مستعملة ، دون أن تتغلب احداهما على الأخرى ، كما هو الحال بالنسبة للغة (الانجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشـمالية مع الأسبانية المجاورة لها فى المكسيك ، — وكذلك الشأن بالنسبة للغة — البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الأسبانية التى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية « كولومبيا — بيرو — بوليفيا — بارجواى — أورجواى — الارجنتين ... الخ » ، وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية)(١) .

فهكذا يجتمع نظامان لغويان ، أو تجتمع لغتان أو أكثر فى منطقة واحدة ، وهذا هو الشكل الأول من أشـكال الازدواج اللغوى . وهو يحدث كثيرا فى أمر اللغات البشرية ، وبخاصـة فى اللغات المتصـارعة اما بسبب الهجرات ، واما بسبب الغزو والاحتلال ، واما بسبب الجوار ، كما سيأتى بيان القول فيه .

والشكل الثانى من أشكال الازدواج اللغوى يتصل باللغة نفسها ، وذلك حين ننظر فى اللغة الواحدة الى مستويين : الأول مستوى الكتابة والثانى مستوى النطق ... وكل منهما ترجمة للصور الذهنية للغة . قد ينشأ فى تاريخ اللغة من العوامل والأسباب ما يؤدى الى الانفصال

---

(١) انظر : الدكتور / على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ص ١٣٩

والتفريق • فيظهر الاختلاف شيئا فشيئا بين نظام الكتابة الثابت والذى يمكن وصفه بالقديم وبين نظام النطق الذى يمكن أن يوصف بالتطور والحداثة ، ويشبه هذا فى لغتنا العربية نطقنا لأصوات : الذال ، والثاء، والظاء — مثلا — فعلى مستوى الكتابة ترسم هذه الأصوات بالشكل المعروف هكذا (ذ — ث — ظ) وعلى مستوى النطق نجد أن الكثيرين من المصريين المثقفين ينطقون الذال فى نحو : (ذلك — الذى — هذا — هذان ••• الخ) زايا ، وهذا تحريف صوتى واضح ، كفيل بأن يفسد المعنى ، ويغير الدلالة ، ولولا الالف اللغوى والحس بالاشتقاق لأخطأنا فى كتابة مثل هذه الكلمات •

ومن ذلك أيضا نطق البعض لكلمة « أسبوع » و « أصدق » و « مجتمع » وغيرها ، فالسين فى كلمة « أسبوع » تنطق قريبة من الزاى ، والصاد فى كلمة « أصدق » تنطق أشبه بالزاى المفخمة أو بالظاء المصرية ، والجيم فى كلمة « مجتمع » تنطق أشبه بالكاف •• وهذا الانحراف فى النطق ، أو اللحن فيه انما نشأ بسبب الجوار الصوتى• فالسين انما تنطق قريبة من الزاى فى الكلمة الأولى لأنها جاورت صوتا مجهورا هو « الباء » فتحولت من صوت مهموس الى صوت مجهور ، ونظيرها المجهور هو « الزاى » •

والصاد فى الكلمة الثانية انما نطقت قريبة من الزاى المفخمة أو الظاء المصرية لأنها جاورت صوتا مجهورا هو « الدال » فتحولت من مهموس مفخم الى مجهور مفخم •

والجيم فى الكلمة الثالثة نطقت كافا أو كالكاف لأنه جاء بعدها « التاء » التى هى صوت مغلق مهموس ، فتحولت الجيم من مغلق مجهور الى نظيره المهموس وهو الكاف • والأمثلة على ذلك كثيرة فى اللغة العربية •• ولكن هذا الخلف بين الصورة المكتوبة والصورة

الطريقة لم يمثل حتى الآن مشكلة في التعلم اللغوى فى مصر لأن الحس اللغوى يقوم باصلاح هذا الخطأ عند الكتابة فتتم حسب النظام الفصيح • على حين أننا نجد مثل هذا الخلف يمثل مشكلة لغوية عند السعوديين بالنسبة لصوت « الضاد » فهم ينطقونها ظاء تقريبا بل ان الصورة الصوتية للضاد والظاء واحدة ، ومن ثم يخطىء الجم الغفير من الطلاب السعوديين حتى فى المراحل الجامعية فى كتابة « الضاد » فأحيانا يكتبونها (ض) ، وأحيانا كثيرة يكتبونها (ظ) وبذلك يتحول المعنى ويتبدل ، فمثلا : ضل من الضلال يكتبها الطالب بالظاء هكذا (ظل) ، وكذلك كلمة « الضلال » تكتب « الظلال » وقد يحتار الطالب فيسأل مدرسه : هل هى أخت الضاد ، أو أخت الطاء ؟ فانظر الى أى حد يمكن أن يؤدى الاختلاف بين نظام الكتابة ونظام النطق الى الازدواج ••

وهذه هى أول لبنة فى صرح اللهجات ، وأول مسمار يدق فى نعش اللغة النموذجية ••• تأخذ اللهجات فى تحديد معالم صوتية لها ، ومع استمرار عوامل التفريق تتحول هذه المعالم الصوتية الى نظام صوتى خاص ، ومثل هذا يمكن أن يتم على مستوى الصيغ والأوزان ، وعلى مستوى الدلالة ، وعلى مستوى الوظيفة النحوية •

واللغات البشرية التى تبدلت وتفرعت الى لهجات واللهجات الى لغات قد حافظ أصحابها على نظام كتابتها وقتا كبيرا ، لكن نظام نطقهم لم توضع عليه رقابة ، ولم يوجه اليه اصلاح فتغيرت معالمه وخصائصه الصوتية كثيرا ، حتى أن لغة الكتابة تصبح لغة جامدة ، ولا تمثل تمثيلا صحيحا الحياة اللغوية فى المجتمع ، بل يصل بها الأمر الى أن يصبح كل منهما غريبا عن الآخر ، أى أن الكتابة شىء والنطق شىء آخر •

وهذه الحقيقة اللغوية آثار سيئة فى عملية التعلم اللغوى ،

يوضح ذلك أستاذنا الدكتور / على عبد الواحد وافى فى كتابه : اللغة والمجتمع ص ١١١ وما بعدها قائلا : « ويصبح تعلم لغة الكتابة وتعليمها فى الأمة أشبه شىء بتعلم لغة أجنبية وتعليمها ، وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا ، وايطاليا ، ورومانيا ، واسبانيا ، والبرتغال ، أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى « اللاتينية » ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ، وما عليه الحال الآن فى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة ، واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة فى هذه الشعوب » .

وحينما يفسح لهذا الاختلاف ليبلغ أمده فان النطق يفرض نفسه ويصبح هو لغة كتابة جديدة تحارب لغة الكتابة القديمة ، وتقذف بها فى زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى اليه أمر اللغة اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وايطاليا ورومانيا واسبانيا والبرتغال(١) .

وهنا ينتهى الازدواج اللغوى فى هذه الصورة وينتقل الى عملية احلال ، فيحل نظام جديد مكان نظام قديم ، فقد حلت الفرنسية والايطالية والاسبانية ، والبرتغالية ولغة رومانيا محل اللغة اللاتينيه .

أما الشكل الثالث من أشكال الازدواج اللغوى فهو الذى ينشأ بين اللغة ذاتها وبين ما يسمى بلهجاتها ، ذلك أن اللغة عبارة عن نظام لغوى عام يلتزمه أبناء البيئة الواحدة ، وهذا النظام اللغوى العام يتكون من تلك الأنظمة الجزئية هى : النظام الصوتى ، والنظام الصرفى ، والنظام النحوى والنظام الدلالى ، ويشمل كذلك المظاهر اللغوية الثلاثة : اللغة المنطوقة ، واللغة المكتوبة ، واللغة الذهنية .

واللهجات التى تتفرع اليها اللغة كل واحدة منها عبارة —

---

(١) انظر : الدكتور / على عبد الواحد وافى والمجتمع ص ١١١، ١١٢

كذلك ـــ عن : نظام لغوى خاص فى داخل بيئة اللغة ، وعام بالنسبة لأبناء اللهجة ، وهذا النظام يتكون ـــ أيضا ـــ من نظام صوتى ، ونظام صرفى ، ونظام نحوى ، ونظام دلالى .

وبما أن كل لغة تتفرع الى لهجات ، فان هذه اللهجات حيثما نشأت وتكتمل تحقق معها ظاهرة الازدواج اللغوى ، لأنه أصبح يوجد فى البيئة الواحدة الكبرى أكثر من نظام لغوى للتعامل ، نظام اللغة النموذجية بالاضافة الى نظام كل لهجة من لهجاتها .

وهذا ما عبر عنه اللغويون بأن كل فرد من أبناء اللغة أمام نظامين أو مستويين :

(أ) مستوى فصيح ويتمثل فى قواعد وأحكام اللغة النموذجية المشتركة .

(ب) مستوى لهجى ويتمثل كذلك فى قواعد وأحكام اللهجة التى يستعملها .

وهذا هو الواقع فى تاريخ كل لغة ، والذى صارت اليه اللغة العربية عند نزول القرآن الكريم ، فقد كان العرب جميعا يجيدون الفصحى فهما ونطقا . وكان العربى فى محافل القول يتكلم الفصحى بطلاقة كأحد أبنائها ، واذا تكلم الآخرون بها يفهمهم ويتخاطب معهم، فاذا عاد الى قبيلته وأهله وعشيرته تكلم معهم بلسانهم ، وتعامل معهم بهذا النظام اللغوى الخاص المسمى باللهجة .

يشهد لهذه الحقيقة اللغوية التاريخية نتاج محافل القول ، وما سجلته تلك الأسواق الأدبية من شعر ونثر ، ومنها شعر المعلقات وهؤلاء الأدباء كانوا من قبائل مختلفة ، ولم يسجل فى هذا النتاج الأدبى بعامة ، وفى شعر المعلقات بخاصة ظاهرة لهجية واحدة ، فقد

خلا من كشكشة ربيعة ، وكسكسة هوزان ، وطمطمانية حمير ، وتلتلة بهراء ، وعجعجة قضاعة ، وعنعنة تميم ... الخ ، وجاء وفق النظام اللغوى الفصيح،ومن ثم فقد عد هذا الشعر صورة من صور العربية الفصحى فى بلاغتها وفصاحتها ودقة تعبيرها ، وأنظمة تراكيبها ، والتى جاء بها الاسلام « بلسان عربى مبين » .

وهكذا يتضـــح لنا مفهوم « الازدواج اللغوى » من أنه اجتماع نظامين لغويين أو أكثر فى البيئة الواحدة . كما يتضح لنا صور هذا الازدواج وأشكاله الثلاثة :

(أ) وجود لغتين فى منطقة واحدة نتيجة للهجرات البشرية ، أو للغزوات الاستعمارية ، أو بسبب الجوار .

(ب) وقوع الخلف فى اللغة بين نظام الكتابة ، وبين قانون النطق والأداء ، أو بين اللغة المنطوقة وبين اللغة المكتوبة ، حتى يصـبح كل منهما غريبا عن الآخر ، فيكتب الناس بلغة ، ويتكلمون بلغة أخرى .

(ج) اللغة ولهجاتها ، وذلك معناه أن هناك نظاما لغويا عاما هو الذى تمثله اللغة النموذجية ، ونظاما لغويا خاصا لكل لهجة من لهجاتها .

« أســس وحقائق عامة »

لابد عند دراسة « ظاهرة الازدواج اللغوى » من الوقوف أمام تلك الحقائق اللغوية الآتية ، لما للظاهرة من علاقة قوية بها :

أولا : من القوانين اللغوية التى كشفت عنها دراسة تاريخ اللغات البشرية ، أو التى وضع علم اللغة التاريخى يده عليها ذلك القانون الذى يشبه المعادلة الرياضية فى حياتنا اليومية ، وهو :

[كل لغة تتفرع الى لهجات = وقد تتحول اللهجات الى لغات]

والطرف الأول من هذه المعادلة ماض فى تاريخ كل لغة ، ولم تنتج منه أية لغة بشرية الى اليوم ، فكل لغة لا مفر تتوزع الى لهجات،حتى اللغة العربية فلها لهجاتها العربية القديمة ، كما أن لها لهجاتها الحديثة. وهذا الأمر يشبه سنن الله الكونية التى لها صفة الاطراد والثبات .

أما الطرف الثانى من المعادلة فانه ماض — كذلك — كظاهرة عامة ولكن ليست له صفة الاطراد واللزوم فى شأن كل لهجة ، فليست ضربة لازب أن تتحول كل لهجة فى كل لغة الى لغة ، فبعض اللهجات قد يختفى أو ينزوى ، والبعض الآخر قد يقوى نتيجة لعوامل معينة ، ويتحول الى لغات .

والشواهد على هذا كثيرة : فهذه اللغات الأمهات التى كشفت عنها الدراسات اللغوية التاريخية على أساس من المنهج المقارن ، وهى : اللغة الهندوأوربية الأم ، واللغة السامية الأم ، واللغة الحاميه الأم . كل منهما كان فى أول امر عبارة عن « لهجة » من اللغة الأولى التى كان يتكلمها نوح عليه السلام ومن معه،ثم صارت هذه اللهجة لغة .

وتتفرع الهندوأوربية الأم الى لهجات ، ومع استمرار عملية الانتشار البشرى والتوسع السكانى ، والتوزع طلبا للعيش والكلأ تتحول هذه اللهجات الى لغات وتتشكل هذه اللغات فى مجموعات حصرها الدكتور على عبد الواحد وافى فى ثمانى طوائف هى :

١ — اللغات الهندية الايرانية ، أو اللغات الآرية .

٢ — اللغات الأرمينية .

٣ — اللغات الاغريقية ، وتشمل : اليونية — الأتيكية ، والدورية، واليونانية الحديثة .

٤ — الألبانية .

٥ ــ اللغات الايطالية ، وتشمل : الأسكنة ، والأمبرية ــ السمنية ، واللاتينية ، واللغات الرومانية ، وهى المتفرعة من اللاتينية ، كالفرنسية والبرتغالية ، والايطالية والاسبانية ، ولغة رومانيا ... الخ .

٦ ــ اللغات السلتية التى كانت لغات شعوب السلت ، والتى طغت عليها الآن اللغات الفرنسية والانجليزية والأسبانية .

٧ ــ اللغات الجرمانية .

٨ ــ اللغات البلطيقية السلافية .

كما تتفرع السامية الأم الى لهجات ، واللهجات تتحول الى لغات هى :

١ ــ الأكادية التى تفرعت الى : البابلية ، والآشورية .

٢ ــ الآرامية التى تفرعت الى : الكلدانية أو الآرامية الشرقية ، والسريانية أو الآرامية الغربية .

٣ ــ الكنعانية التى تفرعت الى : الفينيقية ، والعبرية .

٤ ــ الحبشية أو الأثيوبية .

٥ ــ العربية .

كذلك فان اللغة الحامية الأم تتفرع الى لهجات ، ثم الى لغات ، وقد قسمها الدكتور / على عبد الواحد وافى الى ثلاث طوائف :

١ ــ اللغات المصرية ، وتشمل المصرية القديمة ، والقبطية .

٢ ــ اللغات الليبية أو البربرية ، وهى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا .

٣ ــ اللغات الكوشيتية ، وهى لغات السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا(١) .

وانما قلنا فى الطرف الثانى من المعادلة : (وقد تتحول اللهجات الى لغات) اشارة الى حقيقة أن هناك بعض اللهجات فى بعض اللغات قد تختفى ، أو أنها تبقى محصورة فى مستواها اللهجى ، فلا يكتب لها النمو والاتساع ، وتظل مرتبطة بأصلها .

وتأتى اللغة العربية فتتأبى على الطرف الثانى من المعادلة ، انها تخضع للطرف الأول حيث انه لم تشذ عنه لغة بشرية واحدة ، فتتفرع الى لهجات قديما وهى « اللهجات العربية القديمة » التى سجلت آثارها فى كثير من كتب النحو واللغة والأدب ، كما تتفرع ــ حديثا ــ الى لهجات هى تلك « اللهجات العربية الحديثة » الماثلة فى الدول العربية ، أو هى « العاميات » التى يتخاطب بها العرب فى بلدانهم اليوم .

لكنها ترفض أن تتحول هذه اللهجات أو احداهن الى لغات ، وتكسر بذلك هذه القاعدة على مستوى اللغات السامية ، وكذلك على مستوى اللغات البشرية ... والسبب فى ذلك يرجع الى الاسلام : ذلك أن الله عز وجل اختار لهذا الدين الخاتم فى أن تكون لغته «العربية» قال تعالى، « حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »(١) . « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »(٢) . « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »(٣) .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع : الدكتور على عبد الواحد وافى : علم اللغة : الطبعة السلفية ص ١٥٤ وما بعدها .

(١) سورة الزخرف ١ ــ ٣ .

(٢) سورة الشورى : ٧

(٣) سورة الشعراء ١٩٢ ــ ١٩٥ .

لقد كان حدثا تاريخيا جللا فى أمر اللغة العربية أن تصبح لغة مقدسة ومن ساعتها والعربية مواكبة للاسلام فى المنزلة فى قلب المسلم وفى الانتشار حيث الدخول فى دين الله أفواجا • وكذلك فى التعلم ، فمن يرد أن يفقه دينه فليفقه العربية •• وهكذا يدعم الاسلام اللغة العربية ، ويأخذها معه فى كل تبعة دخل فيها ، ويحفظها حين يحوط بها الخطر من هنا أو هناك ، ولذا فان بقاء الاسلام وحفظه من عند الله عز وجل « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(٤) بقاء للغة العربية وحفظ لها • فمهما أهمل أبناء العربية « العربية » ، واستعملوا على حسابها العامية حياتهم ، وفى وسائل اعلامهم ، وفى فصول الدراسة، وحلقات العلم فان العربية سوف تصمد لكل عوامل الهدم هذه ، وتبقى لغة قوية متينة ، ولن تستطيع لهجة من لهجاتها أن تتحول الى لغة • وهذا أمر يستحق العجب والدهشة ولن يعفينا هذا من مسئولياتنا تجاه لغة اسلامنا وتراثنا •

ثانيا : الصراع اللغوى :

أن الصراع اللغوى بين اللغات قانون لغوى كشفت عنه الدراسات اللغوية الحديثة ، وأثبته علم اللغة التاريخى • فكل لغتين أو مجموعة لغات نشأ بين أصحابها اتصال بشرى بسبب تبادل المنافع والمصالح المشتركة ، أو بسبب الغزو المسلح ، أو بسبب الهجرات البشرية لابد وأن يواكب هذا الاتصال البشرى صراع لغوى •

والصراع اللغوى يعنى بالضرورة وجود ازدواج لغوى طيلة وجود الصراع • ومن المقرر عند علماء اللغة أن الصراع اللغوى ليست له درجة ثابتة فقد يكون قويا ، وقد يكون ضعيفا ، ويكون قويا اذا كان نتيجة لغزو مسلح ، ويكون ضعيفا اذا كان نتيجة لهجرة بشرية ، أو

---

(٤) سورة الحجر / ٩ •

لتبادل المنافع والمصالح • كذلك فليس للصراع زمن معين ، فقد يطول وقد يقصر وفق الظروف الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية للشعبين المتصارعين •

والصراع اللغوى من أكبر القضايا اللغوية وأعقدها سواء أكان ذلك من ناحية الأسباب والعوامل ، أم من ناحية الآثار والنتائج ، وقد تكلم عنه الكثير من اللغويين أمثال « فندريس » و « شوخارت » و « ميبه » و « سايس » ومن علماء العربية أستاذنا الدكتور ابراهيم أنيس ، والدكتور / رمضان عبد التواب ، والدكتور / على عبد الواحد وافى ، والجهود القيمة التى بذلها أستاذنا الدكتور / عبد الحميد الدواخلى ، والدكتور / محمد القصاص فى ترجمة كتاب « اللغة » للعالم اللغوى « فندريس » •

وأوفى هذه الكتابات وأوضحها ما كتبه الدكتور / على عبد الواحد وافى فى كتابيه : علم اللغة ، اللغة والمجتمع تحت عنوان : صراع اللغات•

ونستطيع فى هذه العجالة السريعة أن نلمح الى عوامل الصراع اللغوى وأسبابه ، ثم الى نتائجه وآثاره ، لما للصراع من صلة قوية بالازدواج •

(أ) بالنسبة للأسباب فقد وصل بها الدكتور على عبد الواحد وافى الى خمسة أسباب لكننا نستطيع أن ندمجها فى سببين :

الأول : نزوح شعب ذى لغة مستقلة الى شعب آخر ذى لغة أخرى ، وهذا النزوح قد يكون بسبب فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة(١) ، ويصحب هذا النزوح صراع سياسى فى داخل صراع لغوى بين اللغة النازحة ، ولغة السكان الأصليين •

---

(١) انظر : الدكتور / على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ص١١٦

السبب الثانى : تجاور شعبين لكل منهما لغته الخاصة ، وهذا التجاور يؤدى الى الاختلاط والاحتكاك الذى يصل فى نهاية الأمر باللغتين الى الصراع اللغوى •

وهذه ضرورة لغوية لا مفر منها وفق تلك « النظرية القائلة : ان كل اللغات تعتبر لغات مختلطة ، ولو الى حد ما »(١) • وبخاصة فى عالمنا المعاصر الذى أثبتت نظرية الاتصالات أنه يرتبط أجزاؤه كأفراد فى أسرة •

والسبب الثانى هو الأكثر انتشارا فى عالمنا المعاصر • فجميع العلاقات اللغوية القائمة الآن يقع معظمها فى هذا السبب • وان كان الأمر فيما سبق عكس هذا ، حيث ان معظم العلاقات تقع فى السبب الأول ، لانتشار حركة الاستعمار ، وكثرة الحروب والاعتداءات •

(ب) نتائج الصراع : مهما كان الصراع فى سببه ، وفى حجمه ، وفى زمنه فان نتيجته واحدة من اثنتين :

= اما انتصار احدى اللغتين على الأخرى ، بأن تصبح لغة الحياة والأدب والعلم •

= واما عجز احداهما عن التفوق والغلبة ، فتعيشان جنبا الى جنب •

لكن اللغة التى تنتصر فى الصراع القائم بسبب النزوح اما أن يكون شعبها أكثر عددا من اللغة المهزومة ، أولا ، فان كانت أكثر عددا مع تساوى الشعبين فى الهمجية والتأخر ، فانها هى التى تنتصر ، سواء

---

(١) انظر : فندريس : اللغة • ترجمة الدكتور عبد الحميد الدواخلى والدكتور محمد القصاص ص ٣٥٨ •

أكانت هى الغازية أم المغزوة • وسواء كان أهلها هم الغـالبون ، أم المغلوبون ، وسواء أكانت هى اللغة الدخيلة أم لغة السكان الأصليين، وشريطة هذا الفوز أن تكون اللغتان من فصيلة واحدة ، أو من شعبتين متقاربتين •

ومن الأمثلة على هذا اللون من الانتصار ، وعلى هذه النتيجة من نتـائج الصراع : « الأنجليز السكسونيون حينمـا نزحوا من أواسط أوروبا الى انجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التى كان يتكلم بها السكان الأصليون • وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد المغيرين • وكلا الشعبين كان همجيا منحطا فى مستوى حضارته ، ومبلغ ثقافته ، وكلتا اللغتين تنتمى الى فصيلة اللغات الهندية ــ اوربية »(١) • هذا مثال تغلبت فيه اللغة الغازية لتفوق أهلها فى العدد •

ومثال آخر تغلبت فيه اللغـة المغزوة لتفوق أهلها فى العدد مع تساوى الشعبين فى الفوضى والهمجية ، ومع كونهما من فصيلة واحدة ، وهو : « النورمانديون حينمـا أغاروا على انجلترا فى منتصف القـرن التاسع الميـلادى ، واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغـة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان أصيلهم ودخيلهم، انجليزيهم ونورمانديهم يتـكلمون الانجليزية السـكسونية وذلك لأن الانجليز المغلوبين كانوا أكثر عددا من النورمانديين الغالبين ، ولم يكن لأحد الشعبين اذ ذاك حضارة ، ولا ثقافة راقية ، وكلتـا اللغتين من الفصيلة الهندية ــ الأوروبية »(٢) •

---

(١) انظـر : الدكتور على عبد الواحد وافى : اللغـة والمجتمع ص ١١٧ وما بعدها •

(٢) المرجع السابق ص ١١٨ •

وان لم يكن شعبها أكثر عددا لكن كان أهلهـا أرقى حضـارة وثقافة من الآخر ، وأشد منه بأسا ، وأقوى نفوذا ، فانهـا هى التى تتفوق وتنتصر بسبب عامل الرقى والنفوذ والقوة ، وان قل عددها • شريطة استمرار الاتصال بين الشعبين ، والامتزاج بين أفرادهما ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة ، أو من شعبتين متقاربتين(١) •

ومن الأمثلة على ذلك : الصراع الذى قام بين اللغة العربية وبين معظم اللغات السامية وغيرها فى آسيا وأفريقيا فى فتوحاتهم الكثيرة :

فقد تغلبت اللغة العربية على اللغة الآرامية فى العراق والشام ، وعلى اللغة الفارسية فى بعض بلاد مملكة فارس القديمة ، وعلى اللغة القبطية فى مصر ، وعلى اللغة البربرية فى المغرب ، وقد كان عدد العرب الفاتحين قليلا بالنسبة لسكان البلاد الأصليين ، وعلى الرغم من ذلك فقد « أصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ، وفى مصر والسودان ، وشمال أفريقيا ، وفى جزء كبير من قسمها الشرقى المتاخم لبلاد الحبشة »(٢) • وذلك لأن أصحاب اللغة العربية كانوا أرقى حضارة وفكرا وثقافة ، وأقوى نفوذا من أهل هذه اللغات التى انتصرت العربية عليها •

وأما اللغة التى يكتب لها النصر والتفوق فى الصراع القائم بسبب الجوار ، فاما أن تكون نسبة النمو فى أحد الشعبين أعلى من الآخر ، أو لا ، فان كانت نسبة النمو عالية ، والبيئة ضيقة ، فانه يزحف على حدود الشعب المجاور ، وتكثر تبعا لذلك عوامل الاحتكاك والنزاع ، وتنتصر لغته حينئذ شريطة ألا يقل أهلها فى حضارتهم وثقافتهم وآدابهم عن الشعب الآخر •

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٩ •
(٢) المرجع نفسه ص ١٢٠ •

« والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ ، وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية : فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا الوسطى (بسويسرا ، وتشيكوسلوفاكيا، وبولونيا ، والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى »(١) .

وان لم تكن نسبة النمو عالية ، ولكن أصحابها كانوا أقوى نفوذا، وأكثر سيطرة ، فانها تتفوق شريطة ألا يقل أهلها فى حضارتهم وثقافتهم وآدابهم عن أهل اللغة الأخرى . ومن أمثلة ذلك « اللغة الفرنسية » :

« فقد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان والونيا ببلجيكا ، ولنحو ٢٢٪ من سكان سويسرا ، واللغة الايطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ر٥٪ من سكان هذه الجمهورية »(٢) . هذا عن النتيجة الأولى التى تتفوق فيها احدى اللغتين على الأخرى .

أما بالنسبة للنتيجة الثانية ، وهى التى لا تقوى فيها احدى اللغتين على التفوق وتعيش اللغتان جنبا الى جنب ، فانها تتم فى غير الحالات السابقة ، فى حالة النزوح ومن الأمثلة على ذلك :

= أن اللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على اللغة الاغريقية على الرغم من أنها لغة الشعب المنتصر والغالب .

= وأن اللغات الجرمانية لم تقو على التغلب على اللغة اللاتينية.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٣ .

(١) انظر : الدكتور / على عبد الواحد وافى : اللغة والمجتمع ـ ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

= وأن اللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية •

= وأن اللغة العربية لم تقو كذلك على التغلب على اللغات الاسبانية

= وحديثا لم تقو اللغة الفرنسية على التغلب على عربية الجزائر•

= وأن اللغة الانجليزية لم تقو على التغلب على عربية مصر فى فترة الاحتلال التى جاوزت السبعين عاما •

وكذلك الأمر بالنسبة لحالة الجوار فان اللغتين تبقيان جنبا الى جنب • « ويدخل فى هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة فى العصر الحاضر ، فالجوار بين فرنسا وانجلترا ، وألمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، والبرتغال لم يؤد الى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ••• وكذلك لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية الى تغلب لغة منها على أخرى • وكذلك شأن الانجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الاسبانية المجاورة لها فى المكسيك ، وشأن البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الأسبانية التى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية ••• وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية »(١) •

وهذكا نرى أن الصراع اللغوى بين لغتين أو مجموعتين من اللغات — سواء أكان بسبب النزوح للغزو أو الحرب أو الهجرة أو الفتح أم بسبب الجوار كما هو الشأن بين معظم لغات العالم — يحقق الازدواج اللغوى فى نهاية الأمر ، وهذا الازدواج يعكس آثاره اللغوية على كلتا اللغتين الغالبة والمغلوبة ، فاذا سيطرت احدى اللغتين فان اللغة المهزومة تترك بصماتها قوية واضحة على المستويات الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والدلالية •

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ •

كذلك فان تساوت اللغتان ولم تقو احداهما على التغلب ، وعاشتا جنبا الى جنب ، فان كلا من اللغتين يؤثر فى الأخرى على المستويات اللغوية المذكورة .

ويمكننا القول : ان الازدواج اللغوى فى هذه الصورة الأخيرة يصبح من أهم العوامل فى وقوع التطور فى داخل اللغة الواحدة حيث يدخلها كم هائل من الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية .

ثالثا : الانعزال بين أبناء اللغة الواحدة :

من الحقائق التاريخية فى شأن اللغات البشرية أن أبناء اللغة الواحدة يظلون متمسكين بلغتهم صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا طالما يعيشون فى ظل الروابط القوية من الدين ، والفكر والثقافة ، والبيئة الجغرافية ، والعلاقات الاجتماعية والنفسية .

أما حينما تتعرض واحدة من هذه الروابط أو أكثر للضعف أو للاختفاء ، فان هذا ينعكس على اللغة ، حيث تقع الفرقة بين أبنائها .. وتقام الحواجز فاصلة بينهم ، فاذا وقعت فواصل جغرافية مثلا بأن صار بعض أبناء اللغة فى البادية وبعضهم فى الحاضرة ، أو هؤلاء فى الشمال وأولئك فى الجنوب ، أو وقعت فواصل اجتماعية بأن صار أبناء اللغة الى طبقتين : طبقة الأمراء والحكام وعلية القوم وطبقة العمال والصناع والكادحين ، الى آخر تلك الفواصل ، فان هذا الأمر ينعكس على اللغة فتتحول اللغة الواحدة الى لهجات ، واللهجات الى لغات .

ومن الأمثلة على ذلك : أن الشعب السامى الذى كان يقطن فى الجزء الجنوبى الغربى من قارة آسيا ، وهو ما يسمى بالجزيرة

العربية كان متوحدا وكانت لغته السامية الأم لغة قوية متماسكة•ولما بدأت الهجرات السامية تحدث على مدى كل عشرة قرون تقريبا منذ القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد طلبا للكلأ والعشب ، فكانت هجرة الساميين الذين سموا بالأكادين الى بلاد ما وراء النهرين حيث يقطن السومريون ، فنشأت لهم لهجة تحت تأثير الانعزال الجغرافى والفكرى والثقافى والاجتماعى تلك التى لم تلبث أن تحولت الى لغة ، وظهرت اللغة الأكادية •

كما كانت بعد ذلك بعشرة قرون أى حوالى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد الهجرة السامية الثانية الى أرض كنعان،فوقعت الفواصل الجغرافية والاجتماعية بين هؤلاء الذين سموا بالكنعانيين وبين الساميين فى الموطن الأصلى ، فنشأت لهم لهجة ، تلك التى لم تلبث أن تحولت الى لغة عرفت باللغة الكنعانية •

كذلك وقعت هجرة سامية ثالثة فى حوالى القرن السادس عشر أو الخامس عشر قبل الميلاد الى المنطقة الواقعة بين العراق واتخذت دمشق مقرا لها ، وعرف هؤلاء المهاجرون بالآراميين ، ونشأت لهم لهجة ، سرعان ما تحولت الى لغة ، عرفت باللغة الآرامية •

كذلك كانت هجرة الى الحبشة ، وكانت لهم لهجة ، وسرعان ما تحولت الى لغة سميت باللغة الحبشية •

ثم كان الانتقال الى جنوب الجزيرة العربية حيث نشأت لهم لهجة تحولت فيما بعد الى لغة عرفت باللغة العربية •

وهكذا يؤدى الانعزال بين أبناء اللغة الواحدة بمختلف صوره الى ظهور لغات جديدة تكون مناهضة للغة الأم أو الأصلية ، وبذلك يتحقق الازدواج اللغوى •

بعد هذا العرض السريع للتعريف بمفهوم « الازدواج اللغوى » وأشكاله ، وللأسس والحقائق اللغوية التى لها قوة القوانين يتأكد لنا وقوع « ظاهرة الازدواج اللغوى » ونشأتها فى عمر اللغات البشرية عبر تاريخها المديد .

وننتقل — باذن الله — بعد ذلك الى الدراسة التطبيقية للازدواج اللغوى بالنسبة للغة العربية محاولين الكشف عن الظاهرة ، وعن أسبابها ، وعن مظاهرها ، ثم عن علاج القدماء لها ، ثم ماذا عن الظاهرة فى حياتنا اللغوية المعاصرة ، وكيف نعالجها .

ظاهرة الازدواج اللغوى

فى اللغة العربية

تاريخ العربية وطفولتها :

ان الجزء الأكبر من تاريخ اللغة العربية لم يزل مجهولا بالنسبة لنا حتى اليوم ، والذى لاشك فيه من واقع الموروث اللغوى ، ومن قياس الغائب على الشاهد أن ظاهرة « الازدواج اللغوى » قد وقعت فى اللغة العربية بما لا نعلم بدايته وتاريخه ، وقد قسمت العربية الى : عربية بائدة وهى التى بادت وهلكت بهلاك أصحابها ، وتعرف بعربية النقوش ، وهى « الثمودية ، والصفوية ، واللحيانية » . وعربية باقية ، وهى التى بقيت لغة تخاطب ولغة أدب وحياة حتى نزل القرآن الكريم بها .

قد يسأل سائل وأين الازدواج اللغوى فى حياة اللغة العربية ؟ ان الازدواج لا يكون الا بين لغتين ؟ فكيف يصح هذا بالنسبة للعربية وهى لم تزل وستظل ان شاء الله لغة واحدة ؟

والاجابة عن هذا التساؤل أننا قد تحدثنا عن أشكال الازدواج وصوره فيما سبق ، وعرفنا أن من صور الازدواج أن يكون بين اللغة ذاتها وبين لهجاتها التى تفرعت اليهـا ، وبمنطوق القانون اللغـوى الأول فان كل لغة تتفرع الى لهجات ولم تشذ لغة عن هذا القانون، واللغة العربية هى أيضا قد تفرعت الى لهجات •

واللهجة ــ كما سبق القول ــ عبارة عن نظـام لغوى خاص فى داخل اللغة ، أو بعبارة أخرى : بجـانب اللغة ، ففى بيئة اللغـة الواحدة توجد أنظمة لغوية بعدد اللهجات التى فيها • وعـلى ذلك فقضية الازدواج أولا قضية ضرورية ، أو أمر واقع فى تاريخ كل لغة بشرية ، وثانيا فهى واقعة فى تاريخ اللغة العربية قديما وحديثا على أساس أن الفصحى نظام لغوى ثابت صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا ، وكل لهجة من لهجاتها العربية القديمة كذلك نظام لغوى ثابت صوتيا وصرفيا ونحويا ودلاليا • مع ملاحظة أن المسافة بين النظامين قصـيرة وضـيقة حتى حصر القدماء الفـوارق بينهما فى خصائص وظـواهر محدودة كما سيأتى •

ان البيئة العربية قبل الاسلام قد انتظمت مستويين لغـويين : مستوى فصيح تمثله العربية الفصحى ، وهو نظام لغوى عام يتكون من أنظمة فرعية : صوتية ، وصرفية ونحوية ، ودلاليه • ومسـتوى لهجى تمثله القبائل العربية بلهجاتها ، وهو عدة أنظمة لغوية بعـدد اللهجـات •

والعربى فى هذه البيئة كان قادرا على استعمال النظامين،بل كان يتعامل بهما ، ففى مواقف الجد والمحافل الرسـمية يتعامل متحـدثا ومستمعا بنظام الفصحى ، وحين يعود الى أهله وعشيرته يتعامل معهم بنظام لهجته • وهذا هو مفهوم الازدواج اللغوى وهو صـورة من صـوره •

وجاء الاسلام فقوى من وجود النظام اللغوى الفصيح،وزاد من التفاف الناطقين حول هذا النظام ، بل حرك الهمم ، وأثار النفوس للمحافظة على هذا النظام الفصيح فقامت الدراسات اللغوية الأكاديمية من أجل حماية هذا النظام الفصيح .

لكن مازال الازدواج قائما ، حيث كانت اللهجات قائمة ومستعملة فى حياة الناس .

ويأتى الاسلام الحنيف ليقرر مصير اللغة العربية الفصحى ، « فلم يحدث حدث فى تاريخ اللغة العربية أبعد أثرا فى تقرير مصيرها من ظهور الاسلام ، ففى ذلك العهد — قبل أكثر من ١٣٠٠ عام — عندما رتل محمد ﷺ القرآن على بنى وطنه بلسان عربى مبين،تأكدت رابطة وثيقة بين لغته والدين الجديد ، كانت ذات دلالة عظيمة النتائج فى مستقبل هذه اللغة ، ولا ينحصر هذا فى الدور الذى لعبته العربية منذ ذلك الوقت فى العالم الاسلامى كافة ، من حيث صارت لغة الدين والحضارة على الاطلاق ، بل يتجاوزه بمقدار أعظم الى النتائج التى تركتها غزوات الفتح على أيدى البدو تحت راية الاسلام فى لغتهم . وبذلك صارت العربية لغة الطبقات السائدة الموجهة فى دولة سرعان ما امتدت رقعتها فى أوج اتساعها ، وانتشارها بعد سنة ٧٠٠م من أسبانيا غربا ، الى أواسط آسيا نحو المشرق »(١) .

علاقة عضوية :

أصبحت العربية لغة الاسلام الحنيف ، فاكتسبت قدسية فى نظر أبنائها ، وهكذا يجب أن يفهم الخارجون عن محيطها ، وذلك وفقا لحكمة الله عز وجل وسنته فى ارسال رسله مبشرين ومنذرين

---

(١) انظر : يوهان فك : العربية ، ترجمة الدكتور / رمضان عبد التواب ص ١٣ .

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » •• فتأكدت الرابطة القوية بين الاسلام واللغة العربية ، وتغير مستقبل العربية ومصيرها على نحو ما عبر به « يوهان فك » وأقره ، وشهد به •

ـ لقد قوى الاسلام من مكانة اللغة العربية وأعلاها •

ـ ووحد بين المسلمين فى لغتهم تبعا لتوحدهم فى دينهم •

ـ وأصبحت وسيلة التفاهم ، وأداة الاتصال بين المسلمين فى العالم الاسلامى كله •

ـ كما أصبحت لغة الاسلام والحضارة والعلم على الاطلاق •

ـ وأصبحت ـ كما رأينا فى النص السابق ـ بعد الفتوحات لغة الطبقات الموجهة السائدة فى الدولة الاسلامية الكبرى من اسبانيا غربا ، الى أواسط آسيا شرقا •

ـ نمى الاسلام ثروتها اللغوية ، فزادت مفرداتها ، وتشكلت أساليبها ، وتعددت دلالاتها •

ـ لم تضعف العربية ، ولم يزعزع من مكانتها ما حدث من سقوط الدولة الأموية ، ولا توزع الدولة العباسية الى دويلات ، ولا سقوط الأندلس ، ولا رفع العصر السجاوقى من شأن الفارسية الحديثة ، وحصره العربية فى ميدان الدين • والفلسفة الكلامية •

ـ ولم يقلل من قوة هذا اللغة الشريفة ومرونتها وثرائها ما حدث لها أخيرا من دعوات مغرضة ، وحروب خبيثة ، ولهجات عربية معاصرة أو عاميات تتخر فى عظامها •

ـ كل ذلك والعربية متمتعة بقوتها ، ومحتفظة بمكانتها التى منحها لها الاسلام وهى باقية ببقاء هذا الدين الحنيف الى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

أسباب الازدواج اللغوى فى العربية

رأينا فيما سبق آن وجود ظاهرة « الازدواج » فى اللغة العربية أمر لا مفر منه ، شأنها فى ذلك شأن جميع اللغات البشرية،فقد وجد الازدواج يوم أن توزعت العربية الى لهجات ، وصارت تستعمل فى حياتها اللغوية أكثر من نظام وهناك عوامل وأسباب كانت وراء نشأة هذه الظاهرة فى البيئة العربية ، وقد سبق الحديث عنها تحت عنوان « أسس وحقائق عامة » ص ١٠ وما بعدها ، وسوف نعددها هنا فرارا من التكرير .

١ — ضرورة تفرع اللغة الى لهجات ، وقد تفرعت العربية الفصحى الى لهجات كثيرة قديما وحديثا . فقديما عرفت لهجات مثل: تميم ، والحجاز ، وطىء ، وقيس ، وأسد وهذيل ... الخ ، وحديثا توجد اللهجات القائمة فى البلدان العربية ، غير أنه يلاحظ أن اللهجات القديمة أقرب الى الفصحى بدرجة كبرى ، على عكس ما عليه الحال بالنسبة للهجات الحديثة .

وهذا الوجود اللهجى أدى الى وجود الازدواج اللغوى ، وكان هذا الازدواج العقبة الكئود فى جميع اللغة العربية ، وفى تدوين متنها ، وتأليف معاجمها واستنباط قواعدها وأحكامها صوتيا،وصرفيا، ونحويا ، ودلاليا ، مما سيأتى بيانه .

٢ — الصراع اللغوى : فقد نشأ احتكاك بين اللغة العربية وبين اللغات الأخرى المجاورة ، فأثرت العربية فى الفارسية ، والتركية ، والقبطية ... الخ وتأثرت بها ، الأمر الذى أدى الى ظهور «المعرب، والدخيل » فى العربية .

ولقد كثر هذا الدخيل فى حياتنا اللغوية المعاصرة حتى صرنا نتكلم بكم هائل من المفردات ، والمصطلحات التى لم تعرب بعد ، وجرت هذه

الألفاظ على ألسنة العامة والخاصة ، حتى ليكاد أمر عجمتها يخفى على الأجيال القادمة .

٣ ــ الانعزال الجغرافى : ان الفواصل الجغرافية من جبال وأنهار وبحار وصحارى بين أبناء اللغة الواحدة ــ كما مر ــ تؤدى الى وجود « الازدواج اللغوى » حيث تنشأ اللهجات ، وقد تتحول الى لغات ــ واللغة العربية وقع فيها هذا العامل الجغرافى ، ففصل بين أبنائها ، فقديما كانت عربية الشمال ، وعربية الجنوب ، وكان الخلف بينهما واضحا حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا .

وقد فرق أسلافنا اللغويون بين بيئتين للغة العربية : البيئة البدوية ، والبيئة الحضرية ، وسجلوا فى دراساتهم اللغوية خصائص وسمات لكل الاستعمال اللغوى فى البيئتين .

ومازال العامل الجغرافى فى هذا مؤديا أثره حتى على مستوى اللهجة ، ففى اللهجة المصرية يظهر الفرق واضحا بين نطق أهل صعيد مصر ، والنطق القاهرى .

٤ ــ العامل الاجتماعى : أو الانعزال الاجتماعى : رأينا فيما سبق أنه من العوامل التى تقف وراء الازدواج اللغوى ، وقد أثر فى اللغة العربية قديما وحديثا ، ذلك أن انقسام المجتمع العربى قديما الى قبائل ، وحديثا الى طبقات اجتماعية أدى الى ظهور مستويات لغوية متعددة ، حتى صارت لكل قبيلة لهجة خاصة بها ، وصارت كل طبقة اجتماعية ، أو كل أصحاب مهنة أو حرفة خصائص لغوية تميزهم عن غيرهم مما يسميه علماء اللغة المحدثون « اللهجات الاجتماعية » وهذا مما يؤدى الى الازدواج اللغوى .

الى غير ذلك من العوامل المؤثرة فى ذات اللغة كالعامل النفسى، والعامل الثقافى والعامل الاقتصادى ، والعامل السياسى ، فكلها تؤدى الى وجود مستويات لغوية بجانب المستوى اللغوى الفصيح •

مظاهر الازدواج اللغوى وصوره

عرفنا ــ فيما سبق ــ أن اللغة عبارة عن : نظام لغوى متكامل فى بيئة معينة •

وأن اللهجة كذلك نظام لغوى متكامل فى بيئة جزئية داخل بيئة اللغة • وكلا النظامين ينتظم المستويات اللغوية الأربعة :

ــ المستوى الصوتى ــ المستوى الصرفى

ــ المستوى النحوى ــ المستوى الدلالى •

وتوجد الخصائص اللغوية المشتركة على المستويات الأربعة المذكورة لتربط بين اللغة ولهجاتها • وهذا هو الواقع بالنسبة للغة العربية •

لقد ظهر الازدواج فى اللغة العربية قديما ، ولكنه نشأ محددا ، وظل فى أطر ضيقة ، وذلك على المستويات : الصوتية والصرفية ، والنحوية والدلالية •

أولا : المستوى الصوتى :

كانت بداية الازدواج عبارة عن : خصائص صوتية تمثلت فى مخارج الأصوات وصفاتها ، نتيجة للتفاعل الصوتى فى داخل الكلمة، وفى موقع الصوت فى الكلمة (آخرا ، أو وسطا ، أو أولا) ، وفى تبدل الأصوات وتناوبها ، وفى حذف بعض الأصوات أو دمجها •

وصور الازدواج الصوتى كثيرة لن نستطيع فى هذا المقام الضيق حصرها ، فلنذكرها على سبيل التمثيل على النحو التالى :

١ ــ الجهر والهمس :

الصوت المجهور أوضح فى السمع من الصوت المهموس ، وقد ناسب البيئة الحضرية خفض الصوت ، والميل الى الأصوات المهموسة، على حين ناسب البيئة البدوية وضوح الصوت ، والميل الى الأصوات المجهورة .

ــ وعلى ذلك رأينا « هذيل » تقلب الحاء عينا (ح ← ع) ، فيقولون فى « اللحم الأحمر أحسن من اللحم الأبيض » ← « اللحم الأعمر أعش من اللعم الأبيض » .

وهذه الظاهرة الصوتية عرفت قديما « بفحفحة هذيل » .

ــ كذلك تقلب « تميم وقيس عيلان » الهمزة فى أول الكلمة عينا (أ ← ع) ، فيقولون فى « أنْ » : « عنْ » وعلى ذلك روى قول الشاعر :

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وأنشد يعقوب :

فلا تلهك الدنيا عن الدين واعتمل لآخرة لابد عن ستصيرها

ــ وفى رواية نسبت الى الفراء ، أن بنى تميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون همزة (أن) اذا كانت مفتوحة عينا ، فيقولون: « أشهد عنك رسول الله »

فاذا كسروا رجعوا الى الهمزة .

ـ ابدال س + ← ز : اتجهت قبيلة كلب وعذرة وبنـو القين الى ابدال الصاد زايا ، فيقولون فى « الصراط » ← الزراط • كما أن قبيلة كلب يقولون فى « سقر » : زقر • وفى شاة صقعاء : شـاة زقعاء ، وفى : اصداق : ازدقى ، وفى : صـدق : زدق • وعلى هذه اللهجة قرىء « ومن أصدق من الله حـديثا » بالزاى المفخمـة فى « أصدق » •

وروى عن حاتم أنه قال : « هذا فزدى أنه » عندما عقـر ابلا لضيفه فقيل له : هلا فصدتها ؟

وقرىء : (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) وسائر القراء بالصاد ، وهذه بالزاى المفخمة ، وهى تشـبه الظاء المصرية ، وهى ما سـماها ابن سينا « زاى ظائية » •

ـ ابدال القاف كافا (ق ← ك) : فقريش تقول : كشط،وتميم وأسد يقولون : قشط • ومن ذلك قول الشاعر :

ولا أقول لقدر القوم قد نضجت ولا أقول لباب الدار مقفول

ناطقا القافات فى البيت كافات •

٢ ـ التفخيم والترقيق :

والبدو يميلون الى التفخيم ، والحضر يميلون الى الترقيق،فيقع التبادل بين السين والصاد فى مثل : « الساق ، والصاق ـ السقر ، والصقر ـ السماخ ، والصماخ ـ السراط ، والصراط ـ السخب والصخب ـ سقوب الابل ، وصقوبها أى أرجلها •

ـ ويقع التبادل بين الطاء والتاء : ومن ذلك : فحصت برجلك ، وفحصط برجلك ، وعلى هذا قرىء بالادغـام « وقالت طـائفة » أى بابدال التاء طاء •

— ويقع بين القاف والكاف: فيقولون فى : كشط الجل عن الفرس، بمعنى نزعه : قشط الجل عن الفرس •

٣ — الميل الى الضم أو الكسر : فقد سجلت معاجمنا العربية الكثير من المفردات التى رويت بالضم مرة،وبالكسر أخرى من ذلك :

— أمسُ ، وأمسِ — عليهُم ، وعليهِم — اليهُم ، واليهِم — « أئذا مُتنَا » و « أئذا مِتنا » — اتخذناهم سُخريا ، وسِخريا — أُسوة ، واسوة — مُرْية ، ومِرْية ••• الخ • والضم يناسب البداوة ، والكسر يتناسب مع أهل الحضر •

٤ — الميل الى الضم أو الفتح : مما سجل من هذا القبيل : (تفاوت، وتفاوت — العضد ، والعضد — سكارى ، كسالى ، وكسالى — سنفرغ لكم ، وسنفرغ لكم — والضم يناسب أهل البدو ، والفتح يلائم أهل الحضر •

٥ — الميل الى الفتح أو الكسر : سجلت معا جمعا عددا من المفردات التى رويت مرة بالفتح ، وأخرى بالكسر،ومنها : (بِعير ، وبَعير — شَهيد ، وشَهِيد — زئير ، وزَئير — غشاوة ، وغَشاوة — بقى ، وبقى — فنى ، وفَنى — رضى ، ورضى) •

٦ — الشدة والرخاوة :

يميل بعض العرب الى الأصوات الشديدة ، بازاء الأصوات الرخوة فى نظام الفصحى . ومن أمثلة ذلك :

— ف ← ب : مثل : عكوف الطير ، يقال فيها : عكوب الطير •

— ذ ← د : ما ذقت عذوفا ولا عذوفة ، يقال فيها : ما ذقت عذوفا ولا عذوفة •

ث ← ت : الخبيث ، ولغة خيبر : الخبيت •

ص ← ت : اللص ، وعند طيء : اللصت ــ الخزف ، والخزب ــ الطس ، والطست ــ طين لازب ، وطين لاتب ــ فاضت نفسه ، وفاظت نفسه ــ الناس ، والنات •

ويدخل فى الشدة والرخاوة تلك التغيرات التى أصبحت ظواهر صوتية مثل :

* **العجعجة :**

وتنسب الى قضاعة ، وهى قلب الياء المشددة بعد العين جيما مشددة عند النسب ، فيقال فى : فقيمى ، ومرى : فقيمج ، ومرج • وروى عن شاعرهم :

خالى عويف وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج
وبالغداة كسر البرنج تقاح بالود وبالصيصج

* **الكشكشة :**

وتنسب الى ربيعة ، أو تميم ، أو بكر بن وائل ، أو أسد ، وهى :

ابدال كاف المؤنث شينا ، هكذا قال القدماء ، ولكن ليست شينا عادية ، وانما هى صوت مركب من عنصرين : أولهما مغلق ، وثانيهما احتكاكى (تش) فالمغلق كأنه قطعة تاء ، والاحتكاكى كأنه قطعة شين •

ومن أمثلة ذلك ما أنشده ثعلب :

ومن يحلل بواريش معش أى : ومن يحلل بواديك معك

كما ساق :

على فيمـــا أبتغى أبغـــين
بيضاء ترضينى ولا ترضين
اذا دنـــوت جعلت تنبش
وان نأيت جعـــلت تدنين
حتى تتقـــى كتقيق الديش

وجاء فى لسان العرب :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وقد قرىء : « قد جعل ربش تحتش سريا » .

* **الكسكسة :**

وتنسب الى هوازن ، وبكر بن وائل ، وربيعة ومضر ، وتميم ، وهى ابدال كاف المؤنث سينا ، هكذا قال القدماء ، ولكنها ـــ كما سبق فى الكشكشة ـــ صوت مركب من عنصرين : أحدهما غلقى هو قطعة تاء ، وثانيهما احتكاكى هو قطعة سين (تس) .

* **العنعنة :**

وتنسب لتميم وقيس وأسد ، وقد سبق شرحها . ومن أمثلتها : قول بعض بنى تميم : اعتنقت الأمر ، بمعنى : ائتنفته . وقال الأصمعى : السأف والسعف ـــ ودأقم الحائط : دعمه ـــ . وقال الخليل : الخبع هو الخبأ فى لغة تميم ، وهذا خباعنا فى : هذا خباؤنا .

* **الفحفحة :**

وتنسب لهذيل ، وقد سبق شرحها .

* **الاستنطاء :**

وهو ابدال العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء ، مثل « أنطى فى

أعطى ــ وقد قرىء « انا أنطيناك الكوثر » الحسن وطلحة(١) .

* **التلتلة :**

وتنسب الى « بهراء » ، وهى : كسر حرف المضارعة من الثلاثى ماعدا الياء ، ومن ذلك قول شاعرهم :

لو قلت ما فى قومها لم تيثم يفضلها فى حسب وميسم

وساق المعرى قول الشاعر :

قلت لبواب لديه دارها تيذن فانى حموها وجارها

وقرأ أبو عمرو : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا » .

وقرأ ابن وثاب وأبو رزين : « مالك لا تيمنا على يوسف » .

* **الطمطمانية :**

وتنسب الى حمير ، وهى ابدال لام التعريف ميما ، مثل : « طاب امهواء » فى : طاب الهواء ، و « صفا امجو » فى : صفا الجو .

* **الامالة :**

وتنسب لقبائل نجد ، بينما آثر أهل الحجاز الفتح،ومن أمثلتها :

ــ امالة الفتح الى الكسر فى مثل : رحمة .

ــ امالة الألف الى الياء فى مثل : والضحى .

ــ امالة الياء الى الواو فى مثل : قيل .

ــ امالة الواو الى الياء فى مثل بوع .

---

(١) انظر : أبو حيان : البحر المحيط ٨/٥١٩ .

* **الفك والادغام :**

يميل بعض العرب الى الادغام بازاء الفك أو الاظهـار ، ومن أمثلة ذلك :

ـ محمم بدلا من ← معهم

ـ ود بدلا من ← ويد •

ـ ومن يرتد بدلا من ← ومن يرتدد •

ـ ومن يشاق بدلا من ← ومن يشاقق •

ـ غض الطـرف بازاء ← اغضض من صوتك •

* **الهمز والتسهيل :**

نحت قبيلة تميم الى تسهيل الهمزة بازاء تحقيقها عند الحجـازا ومن ذلك : راس فى رأس ـ بير فى بئر ـ لوم فى لؤم ـ يومنون فى يؤمنون ـ هزوا فى هزؤا •

* **القطعة :**

وتنسب الى طىء ، حيث انها تميل الى قطع اللفظ قبل تمامه ، ومن أشعارهم :

درس المنا بمتالع فأبان فتقادمت بالحيس والسربان

أراد : درس المنازل •

ـ تضل منه ابلى بالهوجل فى لجة أمسك فلانا عن فلى

أراد : عن فلان •

* **اللخلخانية :**

وتنسب الى الشحر وعمان ، وهى : حذف بعض أصوات الكلمة نتيجة كثرة الاستعمال ، فيقولون : (مشا الله) فى : (ما شاء الله) •

* **حذف نون « من »** عند خثعم وزبيد ، فيقولون : خرجت ملمسجد •

* **حذف نون اللذين واللتين** ، وذلك عند بعض من بنى ربيعة،ويروى على ذلك :

ـ أبنى كليب ان عـمى اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا
ـ هما اللتـا او وادت تميم لقيل فخـر لهمو صـميم

* **حذف اللام والالف من « على » الجارة :**

وتنسب هذه الظاهرة لقبيلة بلحارث وذلك عندما يليها سـاكن ، فيقولون : ركبت علفرس .

* **الوقف على المنصوب بالسكون :**

أى بحذف الفتحة : وذلك عند بعض من ربيعة ، فيقـولون : رأيت محمد : فى : رأيت محمدا .

هذه طائفة من الأمثلة التى تدل على وجود صورتين صـوتيين ، وهذا ما يمكن أن يسمى «الازدواج اللغوى على المستوى الصوتى» .

واذا انتقلنا الى العربية الفصحى المعاصرة ولهجاتها الموجـودة اليوم من أجل رصد المظاهر الصوتية للازدواج اللغوى ، لوقفنا على أضعاف مضاعفة مما رأيناه قديما .

وسوف لا يسعفنا المقام للوقوف على كل هذه التفصيلات،ويكفينا هذا القدر بالنسبة للمستوى الصوتى .

ثانيا : المستوى الصرفى :

ان ظهور الازدواج اللغوى بين الفصحى ولهجاتها على مسـتوى الأصوات خطوة أولى ، تعقبها خطوة ثانية هى : اختلاف بنية الكلمة وصيغتها مما يحقق الازدواج اللغوى على المستوى الصرفى :

لقد جمع علماء العربية الصور التى سمعوها من العرب بالنسبة للكلمة الواحدة ، وقد حفلت معاجمنا العربية بالشواهد الكثيرة ، والأمثلة التى تثبت أنها كلها صور جائزة • ولنضرب أمثلة على ذلك حيث لن نتمكن من الحصر والاحصاء فمن ذلك :

ـ سجلت معاجمنا أن فى « أصبع » عشر لغات •

ـ فعل وأفعل : جاء فى اللسان : مضنى الأمر ، وأمضنى تميمية • فتنتنى المرأة (حجازية) ، وأفتنتنى (نجدية) •حزنه الأمر (قريش) ، وأحزنه (تميم) •

ـ فُعْل و فَعْل بالضم والفتح : مثل عُقر الدار : أصلها حجازية وعَقر الدار (نجدية) •

ونستطيع أن نركز مظاهر الازدواج الصرفى فى العناصر الآتية :

أ ـ تفريعات الأوزان ، أو تفريعات تميم ، مثل :

ـ فَعِل مثل : علم ، وكتف ، وفخذ تتفرع الى :

١ ـ فَعْل ، فيقال : علم ، كتف ، فخذ : بفتح فسكون •

٢ ـ فِعْل ، فيقال : شهد ، كبد ، كتف : بكسر فسكون •

٣ ـ فِعِل ، فيقال : ضحك ، وكل ما كان ملقى العين : بكسر لهما •

ـ فَعُل ، مثل : عضد و « كبرت كلمة » ، وتتفرع الى :

ـ فَعْل بفتح فسكون ، فيقال : عضد ، وقرىء « كبرت » •

ـ فُعِلَ ، مثل عصر ، بضم فكسر ، وتتفرع الى :

ـ فُعْل ـ بضم فسكون ـ فيقال : عصر •

ومن ذلك : لو عصر منه البان والمسك انعصر وقرىء : « ولعنوا بما قالوا » ، « جـزاء لمن كان كفر » الى آخـر ما قيل فى هـذه التفريعات •

ويضاف الى ذلك ما سبق ذكره فى المستوى الصوتى من ميـل بعض القبائل الى الضم ، أو الى الفتح ، أو الى الكسر ، فان تغيير الحركة هذه يؤدى الى ظهور صيغة جديدة مثل :

« عدوة » بالضم ، و « عدوة » بالكسر •
« أسوة » بالضم ، و « اسوة » بالكسر •
« مرية » بالضم ، و « مرية » بالكسر •
« رفقة » بالضم ، و « رفقة » بالكسر •
« أيان » بالفتح ، و « ايان » بالكسر •
« الوتر » بالفتح ، و « الوتر » بالكسر •

وها هى الكتب والمؤلفات العدة وقد عنيت بهذه القضـية التى تشتمل على صورة أخرى للكلمـة أو أكثر مما يدل عـلى الازدواج الصرفى ، وقد توفرت هذه الكتب عـلى بيان الصورة الفصـيحة ، والصورة التى ليست كذلك ، أو بيان الصورتين اللتين اسـتويتا فى الفصاحة ، أو التى كانت احداهما صوابا ، والأخرى خطـأ ، ومن هذه الكتب :

ـ أدب الكاتب لابن قتيبة ـ اصلاح المنطق لابن السكيت •
ـ درة الغواص للحريرى ـ شرح الدرة للخفاجى •

ـ الأمالى لأبى على القالى ـ المخصص لابن سيده .
ـ الجاسوس على القاموس للشدياق . كتب القراءات .

ب ـ التصحيح والاعلال :

والتصحيح معناه ترك حرف العلة دون تغيير ، ومعنى الاعلال التغيير بالقلب أو بالحذف أو بالتسكين .

ـ والتصحيح معناه ترك حرف العلة دون تغيير ، ومعنى الاعلال التغيير بالقلب أو بالحذف أو بالتسكين .

ـ واسم المفعول الواوى واليائى يكون بالحذف مثل : مقول ، مصون ، مبيع ، مدين ، فقد وقع الاعلال بالحذف ، على حين أننا نجد تميما لا تحذف فيقولون : « قول مقوول ـ ثوب مصوون ـ مسك مد ووف ـ فرس مقوود ـ خاتم مصووغ ـ رجل مديون ـ ثوب مبيوع ومخيوط ، ومكيول ـ ومزيوت ... الخ .

جـ ـ المقصور والممدود :

انتشر بين العرب القصر والمد ، فبعضهم ينطق بالمد ، بازاء ، القصر ، وبعضهم ينطق بالقصر بازاء المد :

فمن الأول : ـ زكرياء فى زكريا ـ والغناء فى الغنى .
ـ أولاء فى أولى ـ أولئك فى أولالك .
ـ الزناء فى الزنى ـ السداء فى السدا (البلح) .

ومن الثانى : هؤلاء فى هؤلاء ـ والشرا فى الشراء .
زكريا فى ـ صنعا فى صنعاء ... الخ .

د ــ أبواب الثلاثى الستة :

ــ فَعَل ← يفعل بالفتح والضم والكسر •

ــ فَعِل ← يفعل بالفتح والكسر •

ــ فَعُل ← يفعل بالضم •

وهذه الأبواب مملوءة بالشـــذوذ ، وما ذلك الا لأنهم جمعـــوا الصور المسموعة عن اللهجات ، دون أن يميزوا بين ما هو من نظام الفصحى ، وما هو من نظام اللهجات •

هـ ــ تداخل اللغات :

ويقال له : تراكب اللغات ، وذلك بأن يكون هناك للفعل صيغتان، فتشتق منهما صيغة ثالثة ، وذلك بأن يؤخذ الماضى من لغة ويؤخـــذ المضارع من لغة ، أى أن كل صيغة من الصيغتين لغة لقبيلـــة من العـــرب •

مثال التداخل :

١ ــ قنط : يقنط

٢ ــ قنط : يقنط

يؤخذ الماضى من الأولى والمضارع من الثانية

فتصير اللغة الجديدة : قنط يقنط

وقد ســـجلت من هذا التداخل الصـــور الكثيرة فى الخصـــائص لابن جنى ، وفى الأفعال لابن القطاع ، وفى شرح المفصل لابن يعيش، وفى البحر المحيط لأبى حيان •

و ــ المصادر :

والمصادر وبخاصة المصادر الثلاثية تشتمل على صورة كثيرة،وذلك جعل العلماء يقولون : انها سماعية فى الأعم الأغلب •

ز ــ التعدى واللزوم :

باب فعل وأفعل :

هناك أهل الحجاز يستعملون « فعل » بينما يستعمل التميميون « أفعل » ، ومن ذلك :

« جزى : أجزى ــ سحت : أسحت ــ لاته : ألاته ــ مضنى الجرح وأمضنى ــ مرج : أمرج ــ كننت : أكننت ــ عصفت : أعصفت » •

وقد انعكست كل هذه الظواهر اللهجية على قراءة القرآن الكريم فسجل العلماء كثيرا من القراءات الشاذة التى جاءت من هذا القبيل ، وكانت مخالفة لنظام الفصحى ، وقواعدها الصرفية •

ولو تتبعنا بقية أبواب الصرف العربى لوجدنا أمثلة كثيرة وبخاصة أمثلة القلب ، وأمثلة الابدال ، وكلها يثبت فى جلاء قضية الازدواج اللغوى وأن وجود صيغ أخرى للكلمة الواحدة انما هو مظهر من مظاهر الازدواج •

وبعد : فلقد كان فى تصورى لدراسة قضية ازدواج اللغوى أن أستوفى مظاهرها وصورها بعد حديثنا عن أسبابها وعواملها ، ثم نكشف عن موقف العلماء منها ، وما بذلوه فى علاجها ومقاومتها والحد من خطورتها ثم ننتقل بعد ذلك الى قضية : الازدواج حديثا لنرى

أسبابه ، ومظاهره وصوره ، والجهود التى يجب أن تبذل لعـلاجه ، وانقاذ الفصحى من آثاره المدمرة .

ولكن طبيعة البحث لا تتسع لتغطية هذه الجوانب تغطية علميـة دقيقة . لذا فانى أستميح القارىء الكريم عذرا فى التوقف عند هذا القدر ، وأعده — ان شاء الله تعالى — باستكمال دراسة هذه القضية فى العدد القادم من هذه المجلة الموقرة التى فتحت صدرها لنا ، نفع الله بها ، وجزى القائمين عليها خير الجزاء .

اللهم أخلص أعمالنا لوجهك ونور لنا طريق رضاك

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وبارك على نبينا محمد .

وعلى آله .

الدكتور / عبد العزيز أحمد علام
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة
قسم أصول اللغة